المُضِلُّ

من أسماء الله الحُسنى المضل ، وهو اسم زائد على الأسماء التسعة والتسعين التي ورد فيها الحديث .

قبل أن نشرع في الحديث عن هذا الاسم لابدَّ من مقدِّمة ، هذه المقدمة لغويَّة . . الكلمة تحتمل من المعاني بقدر ما يملك الإنسان من خبرات ، كأنَّ الكلمة مشجبٌ يعلِّق عليه كلُّ إنسانٍ ما يملكه من خبرات حول هذه الكلمة ، لذلك هناك خطرٌ كبير هو أن نملك مفهوماً خاطئاً عن كلمة ، فكلّما ذكرنا هذه الكلمة حمَّلناها ذلك المفهوم .

مثلاً . . كلمة جرثومة في استعمالاتنا اليوميَّة هي كلمةٌ تشير إلى المرض ، أمّا أن يقف شاعر كأبي تمام يقول وهو يخاطب خليفةً كبيراً كالمعتصم « محمد بن هارون الرشيد » :

خليفة الله جازى الله سعيَك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب

فمعنى ذلك أنَّ كلمةَ « **جرثومةُ** » وقت أن مدح الشاعرُ الخليفةَ بها كانت تعني شيئاً حميداً ، كانت تعني « **أصل الشيء** » ، فلمَّا سمينا تلك الكائنات المجهريّة التي هي سبب الأمراض جراثيم ، فلم يعد من المناسب أن تمدح إنساناً وتصفه بأنَّه جرثومة ، إذاً هذه الكلمة حملت معنىً في حقبةٍ ما غير المعنى الذي تحمله الآن .

فكلمة استعمار ، هذه الكلمة ليست محببة ، لأنَّ أقوياء منحرفين معتدين احتلوا بلاداً كثيراً ونهبوا ثرواتها وقهروا أهلها واستعبدوهم فسمَّوا أنفسهم مستعمرين بمعنى أنَّهم أرادوا أن يُعَمِّروا الأرض ، فالممارسة المؤلمة الخاطئة والتي أُلصقت بهذه الكلمة أعطتها معنىً لا يُقبل الآن أن يمدح بها إنسان ، ومن أجل أن يقف القارىء الكريم على إيجابية كلمة « استعمار » فليقرأ قوله تعالى في سورة هود : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ . [هود : ٦١] .

أردت من هذه المقدِّمة أن نحرر مفاهيم الكلمات مما لصق بها من خبرات . فربَّما كانت الكلمة لها معنىً في اللُّغة غير هذا المعنى .

العلماء قالوا : « **لا ينبغي أن نذكر اسم (المُضل) إلا مع اسم (الهادي) ، ولا ينبغي أن نذكر اسم (الضار) إلا مع اسم (النافع) ، ولا اسم (المُذِل) إلا مع اسم (المُعز) ، ولا اسم (الخافض) إلا مع اسم (الرافع) ، ولا اسم (القابض) إلا مع اسم (الباسط) . . فهو يقبض ليبسط ، ويخفض ليرفع ، ويُذل ليُعز ، ويأخذ ليعطي ، ويضلُّ ليهدي** » ، ما دامت أسماء الله حُسنى وصفاته فُضلى . . إذاً لا بدَّ من تفسيرٍ لهذه الأسماء الحسنى يليقُ بكمال الله ، ويليق بعظمته ، ويليق بقدرته ، ويليق بعدالته ، ويليق برحمته .

الاسم (المضل) ربَّما من خلال الممارسات وجدنا أنَّ إنساناً يُضلُّ إنساناً آخر ، فهذا العمل ليس محبوباً عندنا ، ليس عملاً مستحسناً أن يُضلَّ إنسانٌ إنساناً ، إنَّه عملٌ مخالفٌ للفطرة ، مخالفٌ للقيم الإنسانيَّة الرفيعة ، أما إذا قلنا : إنَّ الله هو المضل فلا بدَّ لهذا الاسم من معنىً يليق بكمال الله .

كما هي العادة نقف وقفةً متأنِّية عند اللُّغة.. فالمُضِلُّ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى التي تضاف إلى التسعة والتسعين اسماً التي وردت في الأحاديث .

الضلالُ : النسيان والضياع.. فقد قال تعالى :

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه : ٥٢] .

وضلَّ الكافر.. إذا غاب عن علة وجوده الذي خُلق من أجلها .

إنسان ذهب إلى بلد غربي لينال الدكتوراه ، فتنته تلك البلاد بمسارحها ومقاصفها ونواديها وحدائقها وشهواتها فانغمس في هذه الشهوات وضلَّ عن هدفه الذي أُرسل من أجله ، فيقال : هذا الطالب ضالّ أي : غاب عن الهدف الذي جاء من أجله ، وقد يكون الضلال هو الانحراف عن الطريق المستقيم.. فالطريق المستقيم إذا خرج الإنسان عنه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً .

أضلَّه.. جعله ضالاً.. إذا قلنا : فلانٌ(أضلَّ فلاناً) أي جعله ضالاً ، أما إذا قلنا : الله جلَّ جلاله (أضلَّ فلاناً) أي : وجده ضالاً وعلِمَه ضالاً.. هذا معنى آخر .

يقال : « **الضلالُ كلُّ عدولٍ عن المنهج عمداً أو سهواً ، يسيراً أو كثيراً** » .

في الحقيقة : وردت كلمة الضلال في القرآن الكريم كثيراً ، وورد أنَّ الله يضلُّ الكافرين ، فكيف نفسِّر هذا الاسم الذي هو بالتأكيد من أسماء الله الحُسنى ، وبالتأكيد لو عرفت مضمونه لذابت نفسك محبةً لله عزَّ وجلَّ ؟

قال بعض العلماء : « **إنَّ إضلال الله تعالى للإنسان على أحد**

وجهين ، أحدهما أن يكون الإنسان ضالاً » . . أي اختار الضلال فقدَّر الله عليه الضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري . . هذا ذكرته كثيراً ، إذا عُزِيَ الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري . . إذا قلنا إنَّ رئاسة الجامعة قد طردت هذا الطالب من الجامعة فليس معنى هذا الكلام إلاّ أنَّ الطالب رفض أن يدرس ، ورفض أن يُداوم ، ورفض أن يُقدِّم الامتحان ، ورفض أن يجيب عن الإنذارات ، وتجاهل كلَّ دعوةٍ إلى أن يعود إلى الجامعة ، عندئذٍ لم تجد رئاسة الجامعة بداً من أن تصدر قراراً يجسِّدُ سلوك الطالب ، يُجسِّد اختيار الطالب ، فإذا عُزِيَ الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري .

لو فتحنا معجم اللُّغة وأردنا أن نستشِفَّ معنى فعل أَفْعَلَ ، فعندنا فِعْلُ (فَعَلَ) وهو فعل لازم ، وأما (أَفْعَلَ) فقد يأتي للتعدية . . ذهب أذهب ، ضلَّ : تاه ، أَضَلَّ . . من معنى الفعل الثلاثي المزيد بهمزةٍ في أوَّله « **أَفْعَلَ** » فأضل تفيد الوجدان أو العلم ، كأن نقول : اختبرتُ هذه القبيلة فما أجبتُها . . أي ما وجدتها جبانةً ، أو نقول : عاملتُها فما أبخلتُها . . أي ما وجدتها بخيلةً ، إذاً معنى أضلَّه . . هناك معنى آخر أي أنَّه وجده ضالاً ، علمه ضالاً ، أعطاه الخيار ، فاختار الضلال فحكم الله عليه بالضلال فأضلَّه .

الشيء الدقيق . . لو أخذنا جامعة كمثال . . فليست البطولة أن ينجح جميع الطلاَّب بعلاماتٍ تامَّة ، ولكنَّ كمال هذه الجامعة أن تأتي علامات الطلاَّب مطابقةً لمستوياتهم العلميَّة ، فتطابق النتائج مع المقدِّمات هو الكمال ، أما أن ننتظر من جامعةٍ ما أن يكون طلاَّبها جميعاً في الدرجة الأولى فهذا يتنافى مع طبيعة الإنسان المخيَّر ، إلا

أنَّ النتائج إذا جاءت مطابقةً للمقدمات فهذا هو الكمال .

فالإنسان حينما يختار الضلال يذكِّره الله فلا يذكُر ، يُنذره فلا يتأثَّر ، يدلُّه فلا يسلك ، يخيفه فلا يتوب ، يكرمه فلا يشكر ، كما تعلمون ؛ أن الله جلَّ جلاله يهدي الإنسان بياناً ، ثم يأتيه تأديباً ، ثم يهديه إكراماً . . لم يستجب في البيان ، ولا في التأديب تضرَّع ، ولا في الإكرام شكر ، فإذَا أصرَّ على الضلال فبحسب قوانين الله عزَّ وجلَّ وبحسب سننه في الكون هذا الإنسان الذي اختار الضلال بمحض مشيئته سوف يسلك الله به إلى النار ليدفع الإنسان به ثمن اختياره .

الشيء الثاني . . معنى الإضلال كما قلت قبل قليل : الحكم على هذا الإنسان بأنَّه ضال والعدول به عن طريق الجنَّة إلى النار وهذا العدول حقٌّ وعدل .

وهناك معنى ثالث . . هو أنَّ الله سبحانه وتعالى جَبَلَ نفسيّة الإنسان جِبلّةً بحيث إذا اختارت طريقاً تألفه ويصعب أن تحيد عنه ، فمَنْ شبَّ على شيءٍ شاب عليه ، ومن شاب على شيءٍ مات عليه ، ومن مات على شيءٍ حُشِر عليه ، فلو أنَّ الإنسان اختار طريق الضلال ، وأَلِفَ الضلال ومارسه ، وانغمس في المعاصي والآثام وأَلِف هذه الحياة ، فإنه يصعب عليه بناءً على جبلَّته أن يغير ما ألفه ، هذه الجبلَّة التي يصعب عليها أن تُغيِّر المألوف عندها ، هي في الأصل لمصلحة الإنسان .

في علوم الفيزياء قانونٌ يسمى : « **قانون العطالة** » ، فالأشياء المتحرِّكة ترفض السكون ، والأشياء الساكنة ترفض الحركة ، فلو كنتَ

تركب مركبةً وأوقف السائقُ المركبةَ فجأةً فأنت كراكب ترفض أن تقف فتتابع الحركة ، هذا الذي يدفع صانعي السيارات لوضع أحزمة الأمان في المقاعد لتكون كراكب مرتبطاً بالمركبة ولست حراً ، فالمركبة حينما تقف فجأةً يبقى الراكب مندفعاً نحو الأمام وقد يموت بهذا الاندفاع فلا بدَّ من حزام الأمان ، وهذا أساس مبدأ العطالة ، والأشياء الساكنة ترفض الحركة ، فلو كنت جالساً في مركبة وأقلعت تشعر أنَّ شيئاً دفعك نحو الخلف ، فالمقعد دفعك من جهة الخلف لأنَّك ترفض الحركة والمركبة تحرَّكت . . فهذا القانون لصالح الإنسان . فلو أن الإنسان هُديَ هدايةً كبيرة جداً ولسببٍ تافهٍ يعدل عن هذه الهداية ، فهذه مشكلة كبيرة تواجهه وتحدث عنده خللاً .

فأنت جبِلَّتكِ تقترب من مبدأ العطالة ، فإذا ألفت الهدى تابعت الهدى ، وبالمقابل ؛ إذا ألف الإنسان الضلال تابع الضلال ، فهذا القانون قانونٌ ذو حدَّيْن لمصلحة المؤمن ، كذلك ليس لمصلحة الكافر ، المؤمن يزداد به إيماناً والكافر يزداد به كفراً ، والحياة أساسها الاختيار ، فكل شيء حيادي ، فهذا القانون يمكن أن يكون لمصلحة المؤمن ، ويمكن أن يكون لغير مصلحة الكافر .

ففي جبلَّة الإنسان ، أنَّ الإنسان إذا سلك طريقاً محموداً أو مذموماً ألفه واستطابه ولزمه وتعذَّر عليه صرفه أو انصرافه عنه ، لذلك أهون شيءٍ أن ترشد الصغار لأنَّهم ليِّنو العود ، أما الكبار فقد ثبتوا على طريقةٍ معيَّنة فمن الصعب جداً أن تغيِّر سلوك الكبير لأنَّه ألف شيئاً يصعب عليه أن يتركه .

فالإنسان الجاهل بالله عزَّ وجلَّ ، والجاهل بمعاني الكلمات قد

يفهم الإضلال فهماً لا يليق بكمال الله عزَّ وجلَّ ، قد يفهمه أنَّ الله أضلَّه أي جعله ضالاً وخلق فيه الضلال ، يا ربِّ إذا خلقت فيه الضلال فلماذا تحاسبه ؟ هذا المعنى لا يليق بالله عزَّ وجلَّ . . فبناءً على أنَّ المقدِّمات لابدَّ لها من نتائج متوافقة معها . فمن اختار الضلال بمحض مشيئته وأصرَّ عليه خلقه الله فيه جزاءً لا ابتداءً . . هذا معنى .

والمعنى الثاني أنَّ طبيعة الإنسان ذات عطالة ، فإذا ألفت الخير ثبتت عليه ، وإذا ألفت الشر ثبتت عليه ، فهذا القانون حيادي يمكن أن يكون لمصلحة المؤمن ، وقد لا يكون لمصلحة غير المؤمن .

لذلك إنّ الإنسان إذا انتبه للهدى في وقتٍ مبكِّر ، فهذا من نعم الله العظمى لأنَّه سيبني بيتاً إسلامياً ، وسيختار عملاً إسلامياً ، أما إذا تأخَّر في البداية ، فقد يجد نفسه ضائعاً فبيته ليس إسلامياً ، وعمله ليس إسلامياً ، وقد ألف حياة التفلُّت عندئذٍ يصعب عليه أن يعود إلى الله كما لو كان شاباً .

لذلك يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٥] .

فعندما يختار الإنسان الهدى ، واللهُ سبحانه ييسِّر له سبيل الهدى يستحيل على كمال الله عزَّ وجلَّ أن يضلَّه بعد أن اهتدى إليه . . لذلك : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾ .

والمؤمنون كما قال الله عنهم : ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ قال تعالى :

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد : ٤ـ٥] .

ومعنى آخر . . إن الكافر أحياناً يُضلُّه الله لا عن ذاته تعالى ، بل عن شركائه ، فلو أنَّ إنساناً أشرك جهةً مع الله أيّة جهةٍ ، فمِن تربية الله له ، ومن تأديب الله له ، أنَّ هذه الجهة التي أشركها مع الله يسخِّرها الله لتخييب ظنِّه ، ويجب أن يُحبَط عملُ هذا الإنسان الذي اعتمد فيه على شريكٍ لله عزَّ وجلَّ ، كأنَّ الله أضلَّه عنه ولم يبق له إلا الله .

والحقيقة : ما أكثر ما يقع هذا الشيء . فكلّما عَلَّقتَ الآمال على جهةٍ أرضيّة ؛ على ابنٍ مثلاً ، أو على زوجة ، أو على أخ ، أو على صديقٍ ، علَّقتَ عليه الآمال ونسيت الله عزَّ وجلَّ فلا بدَّ أن يخيِّب ظنَّك ، هذا الذي علَّقتَ عليه الآمال ، قد يكون هو وفياً لكن يُلهمه الله أن يخيِّب ظنَّك ليضلَّك عنه ، كي تتجه إلى الله وحده لا إلى أحد في الأرض .

فلو أنَّ إنساناً له صديقٌ قوي يعمل في منصبٍ حساس ، وقال له : أنا في خدمتك ، فأيَّة قضيةٍ آلمتك فتعالَ إليّ ، فهذا الإنسان يتَّكىء على هذا الصديق ويشعر بالأمن والقوة ، أشرك وهو لا يدري ، ونسي الله وهو لا يدري ، فلو أنَّه استجاره مرةً ، وطرق بابه ووجد منه خلاف ما يظن فيرى أنه قد يتخلى عنه ، ووقف منه موقفاً سلبياً قاسياً ، فهذا التخلي أو تلك القسوة بإلهام الله لهذا القوي كي يضلَّ هذا المشرك عن شريك الله عزَّ وجلَّ .

فإذاً ، كلّما قلت : أنا ، أو نحن ، أو زيد ، أو عُبيد تخلَّى الله

عنك ، وإذا قلت : الله . . تولاَّك ، فأنت دائماً وأبداً بين التولي والتخلي ، إذا وحَّدت الله تولى أمرك ، وإذا أشركت معه تخلى عنك . . وهذا الدرس نحتاج إليه كلَّ يوم .

كل إنسان له عمل ، له خبرات ، عنده مال ، يستند إلى مراكز قوَّة ، عنده إيجابيَّات ، عنده قدرات ، عنده ملكات ، إذا اعتمد على ملكاته ، على قدراته ، على أمواله ، على جماعته ، على أقربائه ، على إمكاناته ، على شأنه ، على وجاهته ، على ذكائه ، على رصيده ، كلَّما اعتمد على شيءٍ أرضي تخلى الله عنه .

أضلَّه عن هذا الشريك ليوحِّد ، فالمؤمن لو أنَّه أخذ بالأسباب فعليه ألا ينسى مسبب الأسباب ، ولو أنَّه وسَّط فلاناً في قضيَّةٍ ما فعليه ألاّ ينسى أنَّ الله هو الملهم وأن الخير والتوفيق بيده . . فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد : ٨] .

لماذا لم يرد في القرآن إطلاقاً أنَّ الله أضلَّ مؤمناً ؟ فهذه النقطة نقطة إيجابية دقيقة . . لأنَّ المؤمن آمن فقد قال تعالى عنه :

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم : ٧٦] .

وقال تعالى عن أهل الكهف : ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾[الكهف : ١٣] .

أي أنَّ قضاء الله وقدره مع المؤمن ومع الكافر ، فالمؤمن إذا اختار الهدى يزداد هدىً ، إذا آمن يُلقي الله في قلبه السكينة ليزداد إيماناً مع

إيمانه ، إذا اتخذ قراراً يرضي الله عزَّ وجل شرح الله له صدره ، أما إذا اتخذ قراراً يسخط الله عزَّ وجلَّ فلسوف يضيق صدره ويصبح صدره حرجاً ضيِّقاً كأنَّما يصَّعد في السماء كما قال تعالى :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ . . من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام :

« **إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ** » ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ** » [صحيح مسلم] .

إذاً : معنى الإضلال معنى دقيق جداً ، الله جلَّ جلاله هو الكامل ، فأيُّ فهمٍ لكلام الله عزَّ وجلَّ على غير الكمال الذي يليق بالله هذا فهم خاطىء .

في معجم ألفاظ القرآن الكريم قال : أضلَّه . . وجده ضالاً .

قد يتوهَّم أن معنى أضلَّه أي : خلق فيه الضلال . . كما قيل في بيتٍ من الشعر :

ماحيلة العبد والأقدار جارية عليه في كل حال أيها الرائي
ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال له إيَّاك إيَّاك أن تبتلَّ بالماء[1]

---

(١) البيت من كلام الحلاج وقد ردَّ عليه الشيخ عبد الغني النابلسي في قصيدة مطلعها :

قد قال من قال من جهل وإغواء عن حكم تكليف ربي عبده الثائي=

عقيدة الجبر عقيدةٌ زائغة ، عقيدةٌ مرفوضة ، عقيدةٌ لا تليق بكمال الله عزَّ وجلَّ ، لا تليق بكماله ، وتتناقض مع تكليف الإنسان ، ومع حريَّة اختياره ، ومع كسبه ، ومع الثواب والعقاب ، ومع الجنَّة والنار ، عقيدة الجبر تنفيها آيةٌ كريمة قال تعالى :

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

قال علماء اللغة : « **أضلَّه . . وجده ضالاً** » ، كأن تقول أحمدته وأبخلته ، أي وجدته محموداً وبخيلاً . . أحمدته وجدته محموداً ، أبخلته وجدته بخيلاً .

عندنا قاعدة في أصول الفقه . . الآيات المتشابهات مهما كثُرت تُحمَل على الآيات المحكمات مهما قلَّت . . كيف ؟ الكلمة المتشابهة تشبه معنىً ومعنىً آخر ، إذا قلنا كلمة : خطير . . القمح مادةٌ خطيرة ، فما معنى خطير ؟ فالقنبلة خطيرة لأنَّها مدمِّرة ونقول عنها سلاحٌ خطير . . واللحم مادة خطيرة أي أساسيَّة في حياة الإنسان ، فيا تُرى كلمة خطيرة التي وصف بها القمح أو اللحم هل تعني أنَّها مدمِّرة أمْ أساسيَّة ؟ فلو قلنا : القمح مادةٌ خطيرة ماذا نقصد بها ؟ لو قلنا بعد

= ماحيلة العبد والأقدار جارية عليه في كل حال أيها الرائي
ألقاه في البحر مكتوفاً وقال له إيَّاك إياك أن تبتل بالماء
جنى عليه فتى من أهل ملتنا قد قال في رده نظماً بإنشاء
إن حفَّه اللطف لم يمسسه من بلل وما عليه بتكتيف وإلقاء
وإن يكن قدر المولى له غرقاً فهو الغريق وإن ألقي بصحراء

حين : القمح مادةٌ مهمةٌ في حياة الإنسان ، فكلمة مهمَّة تعبير محكم واضح جلي ، كلمة القمح مادةٌ خطيرة كلمة متشابهة ، كيف نفهم كلمة خطيرة ، إذا قرأنا جملة ثانية أنَّ القمح مادة أساسيَّة ، فنحمل كلمة خطيرة على أنَّها أساسيَّة ، لأنَّ الكلمات المتشابهة تُحمل على الكلمات المحكمة . . هذه قاعدة .

فإذا نطق القرآن الكريم بأنَّ الله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا ، وخلقنا ليهدينا ، وإنَّ الله لا يأمر بالفحشاء فقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .

والله سبحانه ﴿ لا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ . . قال تعالى :

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الزمر : ٧] .

مادامت آيات كتاب الله تؤكِّد أنَّ الإنسان مخيَّر ، وأنَّ الشر ليس إيجابياً بل هو شيء سلبي ، وليس مقصوداً لذاته فهو موظَّف للخير المطلق ، عندئذٍ يجب أن نفهم معنى الإضلال لا على أنَّ الله خلق في الإنسان الضلال ، بل على أنَّه أعطاه حريَّة الاختيار ، فاختار الضلال فوجده الله ضالاً ، ولأنَّ هناك قوانين إلهيَّة فالضلال له نهاية والهدى له نهاية .

يضلُّ الله من يشاء . . عندنا آية تقوِّي هذا المعنى قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف : ٥] .

﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾.. زيغاً ابتدائياً مختارين به أزاغ الله قلوبهم.. زيْغاً جزائياً.

وأذكِّر مرة ثانية بمثل الجامعة، طالب بمحض اختياره ترك الدوام، فإنه لم يداوم، ولم يؤدِّ الامتحان، ولم يشترِ الكتب، ولم يردّ على الإنذارات التي وُجهت إليه، ولم يستجب للدعوة للعودة إلى الجامعة، أصر على هذا الموقف، وبعد ذلك يصدرُ من إدارة الجامعة قرار بترقين قيده، هذا القرار تجسيدٌ لإرادته الحرة، نقول: الجامعة طردته، الجامعة رقَّنت قيده، الجامعة جهةٌ خيرةٌ حكيمةٌ أنشأت الجامعة ليتعلَّم الطلاب، لا لتطردهم منها، ولا لترقِّن قيودهم منها.

إذاً: نفهم أن ترقين القيد والطرد من الجامعة نفهمه فهماً جزائياً لا فهماً جبرياً، فهناك فرقٌ بين الفهم الجزائي والجبري.. ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾، ومن يشاء الهدى يهديه الله.. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.. فقد قال تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

هناك معنى آخر للإضلال.. إنسان يتجه إلى حمص، وقبل حمص رأى طريقين بلا لافتات، ورأى رجلاً فسأله قائلاً: مِن فضلك: من أين طريق حمص؟ قال له الرجل: من هذا الطريق. فقال هذا السائل لهذا المسؤول: جزاك الله خيراً، بارك الله فيك،

فلما قبل هذه النصيحة ، وقبل هذا الإرشاد ، قال له الآخر : انتبه فهناك حاجز ، وهناك طريق فرعي ، وهناك مقطع من الطريق شديد السوء فانتبه واحذر . . عندما قبل منه هذا الإرشاد أمدَّه بكثير من التفاصيل . . ولو أنَّ إنساناً آخر وصل لهذا المفترق الذي دون لافتات ، وسأل هذا الرجل : من أين طريق حمص ؟ قال له : من هنا . قال : أنت كاذب ، فهذا الذي يقف على مفترق الطرق هل بإمكانه أن يعطيه تعليمات تفصيليّة ؟ رفض دعوته كلياً ، رفض نصيحته كلياً ، رفض دلالته .

معنى ذلك أنَّ الإنسان حينما يرفض أصل الدين ، حينما يرفض أصل الشريعة ، حينما يرفض منهج الله عزَّ وجلَّ فلن يستفيد من منهج الله وكأنَّ الله أضلَّه .

هناك ألف ميزة لطالب الجامعة . . مكتبة مجَّانيَّة ، وإعارة كتب وتعويض ، ولباس مجَّاني ، وبطاقات تخفيض للمطاعم وفي السفر وفي الطائرات ، إذا رفض الإنسان دخول الجامعة هل يتمتع بهذه الميزات ؟ إذاً هو حُرم منها كلياً . . فهذا إذاً معنى سادس للإضلال . . أنت حين ترفض أصل الدين لن تقبل من الله توجيهاته ، لن تقبل شرعه ، لن تقبل أمره ، لن تقبل نهيه ، لن تقبل القيم التي أرادها لخير الإنسان ، فأنت الذي رفضت الدين فرفضت إذاً كل ميزاته وكل ثمراته .

إذاً . . ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾ . . من يشاء الضلالة يضلُّه الله ، يشاء الضلال اختياراً يضلُّه الله جزاءً ، أي يحرم من ثمرات الدين .

وقد قال تعالى في الآية الكريمة :

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ . . أي أنَّ الإنسان حينما يختار الضلال لا يستطيع أحدٌ في الكون أن يهديه . . أبو لهب مثلاً ألم يعش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! ألم يرَ دلائل نبوَّته ، ألم يَرَ كماله !! ؟ هو رفض الحقيقة كلياً ، فلا تتعب نفسك فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ . . . ماالهداية ؟ الهداية قرار داخلي .

ويجدر بي بعد هذا أن أذكِّر بهذه الكلمة . . أنت إذا أردت الحقيقة كلُّ شيءٍ في الكون يدلُّك عليها ، وإذا رفضّتها فلن تقبل من أحد أن يرغمك عليها ، فقوم موسى رأوا البحر وقد أصبح طريقاً يبساً ، ورأوا العصا وقد أصبحت ثعباناً مبيناً ، ورأوا يد سيدنا موسى بيضاء للناظرين ، فلما أتوا على قوم يعكفون على أصنامٍ لهم ، قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . . وهذا ما ورد في قصة سيدنا موسى مع قومه في الآية الكريمة :

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] .

فالإنسان إذا لم يتَّخذ قراراً داخلياً بالبحث عن الحقيقة ، ليس في الكون كلِّه جهة يمكن أن تهديه إليها ، أُناس عاشوا مع رسول الله ﷺ في الوقت الذي كان القرآن يَنزل عليه والمعجزات تتوالى ، والآيات واضحة ، والدلائل كثيرة ، ومع ذلك ناصبوا النبيَّ ﷺ العداء .

إذاً . . ومن يضلل الله أي من يتَّخذ قرار الضلال ، من يُرد الشهوات ، من يُرد الدنيا ، من يعرض عن الله عزَّ وجلَّ لن يستطيع أحدٌ في الأرض ولا الأنبياء أن يهدوه إلى الله ، لأنَّ الهدى ذاتي ، وهو قرار داخلي .

أضرب مثلاً . . الإنسان قد يكون شديد الذكاء ، وقد يكون عبقرياً ، وقد يكون كإنشتاين ، هذا الذكاء يشبه آلة للتصوير عالية التقنية ، فهناك آلات ثمنها ألوفٌ ، وآلات أُخرى ثمنها ملايين من الليرات كالآلات التي تستخدمها محطات التليفزيون وقد يصل ثمنها إلى أكثر من مليونين من الليرات ، فلو كانت هذه الآلات ليس في داخلها فيلمٌ فما قيمتها ؟ .

فالإنسان إذا أراد الحقيقة يجعل في داخل آلته فيلماً ينطبع عليه كل شيء ، أما إذا لم يُرد الحقيقة فآلته غالية الثمن جداً ولكن بدون فيلم . . إذاً فما قيمة التصوير وضبط العدسة وضبط المسافة والسرعة ؟ لا قيمة لهذه الآلة كلِّها ، أما إن أردت الحقيقة فمعناه أنك وضعت في داخل آلتك فيلماً فكل شيء تلتقطه ، وإذا لم ترد الحقيقة فمهما تكن آلتك غالية الثمن ولكن من دون فيلم في داخلها فلن يجديك شيئاً ، هذا معنى قول الله عزَّ وجلَّ . . ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ . . في الآية الكريمة : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ .

إذا أضلّ الإنسانُ نفسه عن الله فأراد الدنيا وأراد الشهوات فلن تجد له في الأرض من يهديه .

أما المؤمنون قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، مستحيل ذلك فكلُّكم يعلم أنَّ هذه الصيغة (ما كان) من أشدِّ صيغ النفي ، فهذا نفي الشأن وفرقٌ كبير بين نفي الشأن ونفي الحدث . . ما كان له أن يسرق . . لا يسرق ، ولا يحبُّ أن يسرق ، ولا يريد أن يسرق ، ولا يتمنَّى أن يسرق ، ولا يفكِّر أن يسرق ، ولا يرضى أن يسرق ، ولا يرضى لأحدٍ أن يسرق . . ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾ . .

هذا المعنى الذي قد يلقى على الناس لا يصح . فهم يقولون : قد تَعبُدُ الله طوال حياتك وقبل أن تموت بقليل يقدِّر عليك الضلال فتزلَّ قدمك فتستحقَّ النار ، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾ . . كن في طُمأنينة ، الله جلَّ جلاله ينمّي الخير القليل فيجعله كثيراً ، ينمّي الطلب القليل ليجعله طلباً كبيراً .

وفي آيةٍ أُخرى قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ ، أي فأنت رأس مالك أن تبحث عن الحقيقة ، فإذا اتخذت قراراً صادقاً مخلصاً في البحث عن الحقيقة وصلت إليها وربِّ الكعبة ، وزوال الكون أهون على الله من أن تبحث عنها فلا تصل إليها .

فقد قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وقال تعالى في آيةٍ أخرى : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] .

أي أنَّ الله عزَّ وجل دائماً من سننه في معاملة خلقه ، أنَّه ما كان ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيِّب كما في قوله تعالى :

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] .

فلا بدَّ من فرزٍ مستمر . . فحديث الإفك فرزٌ للمؤمنين ، فمنهم من صدَّق ومنهم من كذَّب ، منهم من سكت توقيراً للنبي ﷺ وزوجه المصون ، ومنهم من خاض في حديث الإفك . . قصَّة الإسراء والمعراج فرزٌ للمؤمنين ، منهم من ازداد إيماناً برسالة النبي ﷺ ، ومنهم من انتكس بهذا الخبر . . فهذا الفرز دائم ، فإذا كنت أمام خمسين طالباً دون إجراء مذاكرات وامتحانات فتصبح مشكلة ، فتجدهم كلُّهم يرتدون ثياباً موحَّدة ، وكلُّهم يطلبون العلم ، ولكن بعضهم لا يدرس مطلقاً ، وبعضهم في راحة من عناء الدراسة ، وبعضهم عبء على أهله . . فلا بدَّ من مذاكرةٍ من حين لآخر ، فهذه المذاكرة تفرز الطلاَّب ومن خلالها يتم إعلام الآباء بمستويات أبنائهم ، فهذا كسلان في الدراسة ، وهذا علاماته متدنيّة في الرياضيَّات مثلاً فبذلك يتلافى القصور ، ونشجع المجتهد . . أما أن

يكون كامل العام الدراسي بلا مذاكرات ، وبلا فرز ، وبلا تقييم فهذه مشكلة .

فلحكمةٍ أرادها الله دائماً هناك امتحانات قال . . ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ . . الفتنة : الامتحان . . ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ﴾ . . أي أنَّ الضال الذي يخفي الضلال ويظهر الهداية نفاقاً يكشفه الله ، والمهتدي الذي ينطوي على هداية ، وعلى استقامة وعلى إخلاص لله عزَّ وجلَّ يكافئه . . هذا معنى هذه الآية .

وقال تعالى :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : ٢٧] .

هنا معنى مخالف . . ﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ . . من يضلُّ إذاً ؟ من أعرض . فالمنيب يهديه الله ، أما المعرض فلا يهديه الله عزَّ وجلَّ ، وقال تعالى :

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣١] .

وهذا معنى آخر . . من يشاء هكذا ؟ قال : ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ . . معنى ذلك يشاء الله غير الظالمين ، وهذا بالمقابل .

وقال تعالى :

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] .

آياتٌ كثيرة يُعْزَى فيها الإضلال إلى الله ، فالإضلال الإلهي هو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري ، أو أنَّ الله يضلُّ

الإنسان المشرك عن شركائه.. بيده الخير ، فهذا الإنسان متجه نحو شريك ضعيف فيضلُّه الله عن شركائه ليهتدي إلى الله .

هناك أشياء قد تقع كثيراً وقد يكون عند الإنسان منافذ لمواجهتها.. فإذا ضاقت به الأمور يقول سألجأ إلى فلان أو فلان ، وإذا كان ابنه مسافراً مثلاً يلتجىء إليه ويقول له : ابعث لي مالاً أستعين به ، ويلتجىء بعضهم إلى أخيه ، أو صديقه ، أو إلى شيء يبيعه ليفرج أزمته المالية التي ألمت به ، إنه يركن إلى الدنيا ، ويتمسك بأهدابها على ضعفها وتقلب أهلها ، ويبقى غافلاً عن الله الذي يقدر وحده على رد لهفته وإيمانه .

وأحياناً يقع في شدَّة فيسأل ابنه فيعتذر إليه الابن ، ويطرق باب فلان فيعتذر ، يحاول السفر فلا يسمح له ، يعرض البيت للبيع فلا يأتيه أحدٌ ليشتريه منه ، يغلق الله عليه كلَّ المنافذ ليتجه إلى الله ، أي أضلَّ الله هذا الإنسان عن شركائه.. فهو مشرك متَّكىء على فلان وعلى زيد وعلى عُبيد وعلى مال وعلى وساطة وعلى وجاهة ونسي الله ، فإذا قلنا : فلان أضلَّه الله ، أي أضلَّه عن هذه الجهات الأرضيَّة ليتجه إلى الله خالق البريَّة .

وبعد ، فإنّ حسن الظنِّ بالله ثمن الجنَّة.. إن أردت أن تصل إلى الجنَّة فعليك أن تحسن ظنَّك بالله ، وأن تفهم أسماء الله الحُسنى على نحوٍ يليق بكماله ، ويليق بجلاله ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

ويقول أيضاً : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح : ٦] .

وقال أيضاً :

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

فكلَّما ازددت معرفةً بالله ارتاحت نفسك وانعقدت صلتك به وأقبلت عليه وسعدت بقربه ، وكلَّما ابتعدت عن حسن الظن به صار حجابٌ بينك وبينه ، لذلك :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ** » [سنن ابن ماجه] .

فليس للإنسان عذرٌ إن أساء الظنَّ بالله أن يظل ساكتاً ، فقد حضَّنا الله على أن نسأل . . ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ . . ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ . . قال تعالى :

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان : ٥٩] .

إذاً ، إذَا أشكل عليك مفهوم من مفهومات دينك ، فاسأل أهل الذكر لعلك تخرج من حيرتك وتهتدي سواء السبيل .

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل : ٤٣] .

أرجو الله سبحانه وتعالى منيباً وضارعاً أن ينفعنا بما علَّمنا ، وأن يلهمنا الحقَّ والخير والسداد في الأمر .

* * *